اللغة، أن القول يقع فيه المجاز . . . فيقال: قال الحائط فمال، وقُل برأسك إليَّ أي أملْهُ، وقالت الناقة وقال البعير».

فلا يقال في مثل هذا المعنى تكلَّم، ولا يُعْقَل الكلام إلاَّ بالنطق بعينه «فحدُّ الكلام عنده النطق، أي التلفظ، أما القول فأوسع منه[1]».

والسؤال الذي يواجهنا الآن:

إذا كان لفظ القول لا يدل بالضرورة على النطق بالأصوات بالكيفية التي يتكلم بها الإنسان، ففيم الإشكال إذن؟ أي أننا نواجه الآن معادلةً ذات مجهول واحد فقط، وهو دلالة القول ودلالة القول قد ضيقنا نطاقها في الآيات، بالتفرقة بينهاً وبين التكلم، الذي حددت دلالته بالنطق؛ فلا حاجة بنا إذن إلى الخروج من الحقيقة إلى المجاز، ولكن: ماذا يعني القول؟

الآية الثانية مما ذكره ابن قتيبة هي قول الله تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين**﴾[2]. هذه الآية كانت مثاراً لعدد من الإشكالات، لا بسبب فاعل القول فقط بل بأسباب أخرى[3]، أما القول، فالإشكال في الآية بسببه مُزْدَوَج لتكرار اللفظ. مسنداً أولاً إلى الله تعالى، وثانيًا إلى السماء والأرض وليستا من الناطقين. وقد أنكر أولئك أن يكون الله قد قال، وأن تكون المخلوقات قد قالت وجعلوا الآية كلها مجازًا للأمر بالتكوين ثم حدوثه «وإنما هذا عبارة: لكونّاهما فكانتا».

وقد قاسوا هذا الاستعمال، على استعمال العرب في أشعارهم مثل: قالت الناقة وشكا الجمل وشكا الحصان وما إلى ذلك[4].

وهذا القياس أيضا غير صحيح، لأن فهمنا استعمال العرب ينبغي أن يختلف عن فهمنا استعمال الألفاظ في النص القرآني، لأننا عندما ننكر معنى أراده الشاعر فلا بأس، والنص حمَّال ذو وجوه، أما حين ننكر معنى لفظ صريح في نص إلهي فالأمر يختلف تمامًا.

---

(١) رغم أن ابن قتيبة قد عاد بعد ذلك وأثبت جواز استعمال الكلام فيما يكون من اتعاظ بالأطلال وتذكر لها مستدلا عليه بأبيات من الشعر، المشكل، ص١٠٨ وبعدها.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) نعني ما ثار حول ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ من وهم تناقض مع قوله تعالى في موضع آخر ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾، وفي قوله للسماء والأرض وهي لم توجد بعد، فكيف خاطب المعدوم، وقد ذكر الزركشي في البرهان الإشكال الأول، والثاني أشار إليه ابن قتيبة في الموضع نفسه إشارة عاجلة ص١٠٧

(٤) انظر المشكل، ص١٠٧.